العلوم الإنسانية وإشكالية المنهج:

أ.محمد أمين دكار.

هناك شبه إجماع بين العلماء والمنظرين ومؤرخي العلوم على أن العلوم الإنسانية والاجتماعية قد نشأت في القرن التاسع عشر وكان ذلك نتيجة انبهار المفكرين بما حققته العلوم الطبيعية بفضل المنهج التجريبي من نجاح في فهم الظاهرة الطبيعية0، والتحكّم فيها ومن ثمة استغلالها، ولكن في المقابل نجد اختلافا شديدا بين العلماء والفلاسفة والمؤرخين حول طبيعة المنهج حيث أن نقل المنهج المتبع في العلوم التجريبية إلى دراسة الإنسان الهدف منه تحقيق معرفة موضوعية بالظواهر الإنسانية تُمكن من التحكم في دوافعه والارتقاء بكلماته وإمكانياته وهنا سادت نظرة مفادها تحول الإنسان من ذات تفكر إلى موضوع معرفة علمية، وفي هذه اللّحظة التاريخية للعلم نجد أن العلوم الإنسانية قد نشأت غير مكتملة، فهي وإن استطاعت تحديد موضوعها وحصره، فإنها لم تستطع خلق منهج يلائم طبيعة موضوعها.

إن الشيء الملاحظ هو اقتران ميلاد العلوم الإنسانية بالمشرع الوضعي ولهذا الاقتران شروطه حيث قضى بضرورة التخلص من الخطاب الفلسفي التأملي حول الإنسان والانتقال إلى الدراسة الموضوعية المبنية عن طريق تطبيق النماذج التجريبية، والسبب يعود إلى أن الفلسفة لا تكترث بمجرى التحولات الكبرى في عصرها والتي تتجاهل سيرورة الحركة العلمية ولا تتفاعل معها، هي فلسفة مقضيٌّ عليها تدريجيا بالتقادم والجمود، وتلك فكرة يمكن اعتبارها بمثابة مسلمة ما فتئ تاريخ الفلسفة يؤكدها

وهنا وجب التأكيد على أن الإشكال المنهجي في العلوم الإنسانية حديث، يعود بالأساس إلى القرن 19، هذا الأخير الّذي شهد نضج المنهج التجريبي متمثلا في المنهج الاستنباطي بالنسبة للعلوم الرياضية، والمنهج الاستقرائي في العلوم الطبيعية، وهنا كان لزاما على العلوم الإنسانية أن تختار بين:

1- إبداع منهج يلائم طبيعة موضوعها ويخرج عن المنهجين الاستنباطي والاستقرائي.

2- محاولة التوفيق وتبني هذين المنهجين وتطبيقهما على موضوع الدراسة الإنسانية، إلاّ أن الملاحظ على هذا الاختيار الأخير نتائج مؤلمة حيث ضاع الإنسان بين القواعد الصارمة للمنهج الاستقرائي حيث أضحى قضية أو عددًا أو رقمًا مما أدى إلى إحالة الإنسان إلى مادة طبيعية لمنهج استقرائي0 تحكمه صرامة الواقعية العلمية التي تبرز الجانب النموذجي على حساب الجانب المتفرّد الخاص، لأن رجل العلم إذا ما كان يبدأ دائما بالجزئي الخاص فلكي يستخلص منه ماهو كلي

لقد سادت القرن 19 نزعة علمية وثوقية، تعتقد بإمكانية تفسير كل الظواهر باختلاف أنواعها، حيث لم تكن العلوم الإنسانية والاجتماعية شاذة عن هذه القاعدة، ففي مجال العلوم الاجتماعية تأثر أوجست كونت بفيزياء نيوتن، وبنى فلسفته الوضعية حيث لم يخف كونت انتماءه إلى آراء نيوتين، فهو حاول أن يرسى دعائم علم الاجتماع على قواعد فيزياء نيوتن بل "إن أوجست كونت كان يتخذ من قانون الجاذبية الذي قال به نيوتين نموذجا لما يجب أن يكون عليه التفكير الموضعي (الوضعي)".

لقد تم تعميم أسس المنهج الوضعي لتشمل العلوم الإنسانية وكانت من نتائج ذلك كله أن تمّ اختزال الظاهرة الإنسانية في جوانبها الحسّية والفيزيقية وإسقاط كل ماهو متجاوز ومتعال وغيبي من هذا الوجود، حتى إنه لم يعد هناك فرق بين الظاهرة الإنسانية المتعددة الأبعاد والجوانب والظاهرة الطبيعيّة كما تم فصل العلم عن

كل قيمة أخلاقية، واكتفى هاهنا العلم بطرح سؤال الوسائل مغفلاً أسئلة الأهداف والغايات، ذلك أن "الحالة الوضعية تقوم أساسا على اعتبار الظواهر خاضعة للقوانين..."

يكشف لنا تاريخ العلوم عن صراع مستمر بين العلوم الطبيعيّة والعلوم الإنسانية، وهنا يجب التنويه إلى أن ديكارت مثلا كان يرى أن أسس المنهج يجب أن تكون عقلية، وعلى النقيض منه يرى بيكون أن أسس المنهج يجب أن تكون تجريبية، وهذا الصراع بين العلوم الإنسانية والطبيعية مبني على حجج "إذ تدعي الأولى بإصرار أنها هي التي تبرر الثانية (تؤسسها)، بينما تضطر هذه إلى البحث عن مركزاتها وتبرير منهجياتها خارج كل النّزاعات النفساويةوالسوسيولوجية والتاريخية، وتطهير تاريخها من جرثومة هذه النّزعات جميعها"().

أ- التأصيل التاريخي للمنهج في العلوم الإنسانية:

منذ أن وُجد المفكرون ما برح الناس يناقشون بعض مسائل علم النفس وعلم اللغات وعلم الاجتماع والاقتصاد، ولكتاب طباع الجرمان لتاسيتTacite صلة بالانثربولوجية الثقافية وقد ترتب في كل زمان على الجغرافيين إثارة بعض المشكلات الديموغرافية، وعلى نحو عام كان الناس دائما يفكّرون في فاعليات الإنسان ويبحثونها، غير أن التفكير الموصول أو العرضي شيء وتكوين علم بالمعنى الحقيقي للكلمة مقرون بجرد المشكلات وتعيين حدودها وكذلك بتحديد المناهج وصقلها شيء آخر، والمشكلة في هذه الحالة تحليل العوامل التي قادت علومنا من الحال الماقبل العلمية إلى حالة علوم إنسانية، وعلى الأقل المثل الأعلى للعلوم الإنسانية، وفي وسعنا تمييز خمسة عوامل:

1- الميل إلى المقارنة وهو بعيد أن يكون عاما وطبيعيا بالقدر الّذي يمكن أن يعتقده المرء، فالتفكير في مراحله الأولية يتمثل في اعتقاده أنه في مركز العالم، العالم الفكري والمادي، كذلك وفي جعل قواعد سلوكه بل عادات هذا السلوك معايير شاملة فتكوين علم لا يرجع إذن أبدا إلى الانطلاق من هذا التركيز وتكديس معارف بإضافة بعضها إلى بعض ولكنه يستلزم أيضا أن ترافق هذا الجمع صياغة مذهبية.

وأوّل شرط لتحقيق صياغة موضوعية هو الانحراف على وجهة النظر الخاصة المتغلبة في البدء، وهذا الاتجاه هو الّذي يكفله الاتجاه إلى المقارنة موسعا في الوقت نفسه المقتضيات المعيارية إلى حد إخضاعها لمنظومات متعددة من الأسانيد.

2- النّزعة التاريخية النشوئية: ويتمثل أحد الفروق الرئيسية في الواقع بين الأطوار القبل العلمية بمباحثنا وتكونها على صورة علوم مستقلة ومنهجية في الكشف التدريجي عن كون الحالات الفردية أو الاجتماعية التي تعاني معاناة مباشرة والتي تنقاد في الظاهر لمعرفة حدسية أو مباشرة نتاجا في الحقيقة لتاريخ أو لنمو معرفته ضرورية لفهم المحصلات.

وقد كان علم اللغات بالطبع أول العلوم الإنسانية استفادة من هذا البعد التاريخي إذ أن الوثائق المكتوبة قد احتفظت بعدد كاف من نصوص اللغات الأمهات لإعادة إنشاء تاريخ اللغات المتمدنة العصرية الرئيسية، وقد استطاع علم الاجتماع باستناده إلى التاريخ حيازة وثائق متعددة عن ماضي مجتمعاتنا وحضاراتنا.

3- التأثير الحاسم في نمو العلوم الإنسانية تمثل في النماذج التي قدمتها علوم الطبيعة ويجب أن نميز هنا نوعين من العوامل، أحدهما هو التأثير الّذي أمكن أن تمارسه الفلسفة الوضعية وصور متنوعة من الميتافيزيقات العلمية النزعة في القرن التاسع عشر الّذي بدا مناخه صالحا لتصير امتدادا عاما للفكر العلمي إلى كل ميادين المعرفة، وهناك مثال واضح جدا هو مثال الخطوة الأولى، التي خطاها علم النفس التجريبي في مجال الإدراكات، تضعنا الفسيولوجيا العصبية أمام عمليات متعددة يطلق فيها منبه خارجي استجابة وفي إمكاننا تحليل

مثل هذه المتتاليات كيفا وكما وفي الحالة التي ترافق الاستجابة فيها حالات شعورية كما ترافقها إحساسات أو إدراكات من البديهي أن تطرح مشكلة محاولة تقديرها تقديرا موضوعيا ومحاولة تحديد العلاقات المضبوطة بين المنبه الفيزيقي والنحو الّذي يدرك عليه، من هذا نشأ علم النفس الفيزيقي الّذي بقي عدد كبير من نتائجه صالحا اليوم.

4- كان العامل الأساسي للنمو العلمي لفروع كعلم النفس وعلم الاجتماع التي انفصلت عن الجذع الأصلي للفلسفة هو الميل إلى تحديد المشكلات مع المقتضيات المنهجية المقترنة به.

5- العامل الخامس الحاسم في تكون العلوم الإنسانية مرده إلى اختيار الطرائق ووظيفتها العامة الحاسمة المتمثلة في كونها أدوات تحقيق.

إن الطرق الوحيدة الممكن بلوغها في المجالات التي تتدخل فيها أحكام القيمة الأساسية والالتزامات هي التفكير والحدس.

ب- خصوصيات المنهج وأسسه الابِستمولوجية:

تكونت العلوم التجريبية على العموم بعد العلوم الاستنتاجية بزمن طويل، ولكن على الرغم من التأملات المبشّرة بالخير للمفكرين السابقين وعلى الرغم من ظهور أرخميدس نفسه فقد وجب انتظار الأزمنة الحديثة لتنشئ فيزياء تجريبية بالمعنى الحقيقي للكلمة، وإن أسباب تأخر العلوم الإنسانية هي على الأقل ثلاثة تهم أيضا ومباشرة ابستيمولوجية علوم الإنسان على الرغم من أن وضعها هو أكثر تعقيدا أيضا وهي:

- أوّل هذه الأسباب هو أن الميل الطبيعي للفكر هو حدس الواقع والاستنتاج لا التجريب، لأن التجريب ليس كالاستنتاج إنشاءً حرًا أو على الأقل عفويًا ومباشرا من قبل العقل ولكنه يستلزم خضوعه لمنظمات خارجية تتطلب عملا توافقيًّا أكبر بكثير.

- والسبب الثاني الّذي يكمل السبب الأوّل ويفسره بالمقابل هو أن العمليات الأكثر اتساما بالسمة الأولية أو البدائية في المجال الاستنتاجي هي في الوقت نفسه العمليات الأكثر بساطة كالجمع أو الفصل، والربط بين علاقات لا تماثلية أو تنسيق التناظرات أو المطابقة.

- والسبب الثالث الّذي يفسر تأخر العلوم الإنسانية يفوق في أهميته الأساسية السببين السابقين في الصياغة البنيوية المنطقية للمشكلة، فكثيرا ما نجد أن المشكلة لا توضع في مجالها المحدد وهذا للإحاطة بالمشكلة من جميع جوانبها.

وهذه الأسباب الثلاثة صحيحة من باب أولى في ميدان علوم الإنسان، بل إنها تدعم تدعيما بالغًا مردّه إلى ازدياد تعقد المشكلات وبخاصة إلى الطابع الأكثر مباشرة في الظاهرة للحدوس الممكنة المنصبة على الوقائع المراد معرفتها()، وهنا تجد العلوم الإنسانية نفسها أمام وضع ابسيتيمولوجي ومشكلات منهجية خاصة بها إلى حد يكثر أو يقل، ذلك أن العلوم الإنسانية، لما كان موضوعها الإنسان في فاعليته التي لا تحصى،ولما كانت مُعدّة من قبل الإنسان بفاعلياته المعرفية تجد نفسها وقد وضعت في هذا الموضع الخاص موضع توقفها على الإنسان بوصفه في آن واحد ذاتًا وموضوعا، مما يثير المسائل الخاصة الصعبة، إلا أن وضع العلوم الإنسانية هو أيضا أكثر تعقيدا بكثير، لأن الشخص الذي يلاحظ ذاته أو يجري تجارب عليها أو على الآخرين يمكن من جهة أن تغيّره الظواهر الملاحظة، وأن يكون من جهة أخرى منبعا لتغيرات تطرأ على هذه الظواهر من حيث انبساطها وطبيعتها بالذات وتبعًا لمثل هذه الأوضاع إنما يخلق كون المرء في آن واحد ذاتًا وموضوعًا.

والحاصل من المسألة أنه أصبح لدينا فرقان من العلماء والمفكرين، فريق يرى أن العلوم الإنسانية يمكن دراستها بالمناهج التي تدرس بها العلوم الطبيعية (المناهج التجريبية)، وفريق على النقيض من ذلك يرى أن المناهج المستخدمة في العلوم الطبيعيّة غير صالحة لكي تستخدم مع الظواهر الإنسانية وذلك للاختلاف الشديد بين الظاهرة الإنسانية والظاهرة الطبيعية.

فالعلوم الطبيعية تدرس العالم الخارجي والعلوم الإنسانية تدرس العالم الداخلي، وهنا ظهرت العديد من الاتجاهات التي نادت برفض الوضعية وتبني الاتجاهات العقلية في دراسة الظواهر الإنسانية، ومن هؤلاء [دلتاي- هوسرل- بول فندلباد- ديكارت] أجمعت على ضرورة الخروج بمناهج جديدة تتماشى ومعطيات الظاهرة الإنسانيّة، فظهرت العديد من المناهج، كالمنهج الظاهراتي، الهيرمينوطيقي والنقدي الّذي ظهر على يد علماء مدرسة فرنكفورت.

وظهرت عدة انتقادات موجهة للمدرسة الوضعيّة أهمها:

1- تغييب البعد التاريخي ورفض الخوص فيه، إذ لا ترى في النظرية العلمية عُضوبة تاريخية، متنامية كما وكيفا، وهذا فصل للعلم عن تاريخه.

2- اختزال المنهجية العلمية في النظرة الآلية الضيقة (استقراء واستنتاج) فهي تغفل بعدا هاما من أبعاد المنهج وهو التركيب النظري الّذي يحكمه المنطق الجدلي.

3- نقد الفكر ونقد الواقع وهذا ما نطلق عليه بالمفهوم النقدي للعلم.

لقد حظيت إشكالية المنهجية في العلوم الاجتماعية باهتمام بالغ ذلك أنها تمثل مسألة الموضوعية والقيم في العلوم الاجتماعية، وهل الموضوعية موجودة في العلوم الإنسانية والعلوم الاجتماعية بقدر وجودها في العلوم الطبيعية؟

ونجد مجموعة من العلماء والمفكرين حاولوا الإجابة على هذا السؤال ومنهم:

1- ماكس فيبر خاصة في كتابه (دراسات في نظرية العلم) ، حيث ميّز بين الأحكام القيمية والمعرفة التجريبية، والعلاقة بين العلوم الاجتماعية والطبيعية().

2- دلتاي حيث له تصور مغاير، إنه ينطلق من التمييز الميتودولوجي بين مساري كل من العلوم الإنسانية والعلوم الطبيعية، فإذا كانت الأخيرة تنظر إلى موضوعها باعتباره ظواهر خارجية ومعزولة، فإن العكس هو الّذي يجب أن يحدث في العلوم الإنسانية، لأنه يجب أن نتمثل الحياة النفسية كوجود أولي وأساسي موجود في كل مكان، وثم تصبح العلوم الإنسانية وسيلة لفهم الحياة باعتبارها كلا معطى في التجربة الداخلية().

3- اميل دور كايهم في كتابه (قواعد المنهج في علم الاجتماع) حيث قال بأنه يجب على عالم الاجتماع أن يتحرر من أفكاره السابقة بمعنى فصل الإيديولوجيا.

4- ليفي ستروس يرى أن العلوم الطبيعية علوم تفسيرية وتنبئية على الرّغم من الصعوبات التي تطرحها العلاقة الموجودة بين الوظيفتين لكن الأمر يختلف فيما يخص العلوم الإنسانية، لأن هذه العلوم لا تقدم سوى تصورات فضفاضة، وعلى الرغم من أنها علوم مهيأة في الأصل لكي تقوم بوظائف تنبئية إلا أن تنبؤاتها غالبا ما تكون خاطئة، ولكن من جهة أخرى توجد هناك استمرارية واتصال بين الطبيعة والثقافة، وأن ما نقيمه أو نفترض قيامه من تقابل وتعارض بين نظام الطبيعة ونظام الثقافة إنما

يرجع إلى جهلنا بالقوانين الطبيعية المسؤولة عن التطور والتحول من الطبيعة إلى الثقافة، ولذلك فإن "الهدف البعيد للانثربولوجيا البنيوية يقوم في إعادة إدماج الثقافة في الطبيعة، والحياة في مجموع شروطها الفيزيائية والكيميائية"().

لهذا يرى ليفي ستروس أن العلوم الإنسانية تتموقع في الحقيقة بين التفسير والتنبؤ، وهذا لا يعني أن هذه العلوم غير ذات أهمية لأنها قادرة على أن تقدم للممارسين نوعا من الحكمة التي تتأرجح بين المعرفة الخالصة والمنفعة النافعة، وهنا نجده يوظف مفهوم اللاشعور بوصفه مكونًا أساسا للعقل البشري وليس في استطاعة الوعي أن يدركه أو يحيط به، إذ يؤكد أن اللاشعور البنيوي الّذي يتحدث عنه ليفي ستروس غير شخصي ولا زماني، وهو في طبيعته الأساسية بنية صورية وعلائقية تحافظ على هويتها باستمرار وتفعل وتؤثر في كل العصور بنفس الكيفية، إنه بمثابة القاسم المشترك بين

جميع العقول البشرية في جميع الأزمنة().

الهـوامـش:

1)- نجد أن ميشال فوكو يبدي ملاحظة هامة في تاريخ العلوم الإنسانية حيث يؤكّد أن هذه الأخيرة تفتقر إلى ميراث خاص بها قبل القرن الّذي ظهرت فيه وهو يقصد ق17، ق18، ويعود السبب في هذا إلى الإنسان كموضوع مفكر فيه اختفى في هذين القرنين وهو ما حال دون ظهور مبكر للعلوم الإنسانية في هذه الفترة، حيث يربط فوكو ظهور هذه العلوم بما أنتجه المجتمع الصناعي الّذي فرض تقاليد معرفية جديدة ولمزيد من التوسع ينظر إلى كتاب ميشال فوكو- "الكلمات والأشياء- تر: مطاع صفدي، سالم يفون وآخرون- مركز الإنماء القومي- بيروت- لبنان- ص283-284.
2)- عبد الرزاق الداوي: حوار الفلسفة والعلم والأخلاق-- شركة النشر والتوزيع -المدارس- الدار البيضاء- 2004ص13.
3)- علي عبد المعطي محمد: رؤية معاصرة في علم المناهج- دار المعرفة الجامعية- مصر- 1984- ص45.
4)- صلاح قنصوه: فلسفة العلم- دار التنوير للطباعة والنشر والتوزيع- بيروت-لبنان- ط1- 2007- ص172.
5)- محمد عابد الجابري- المنهج التجريبي وتطور الفكر العلمي- دار الطليعة للطباعة والنشر- بيروت- لبنان- ط1982- ص49.
6)- المرجع نفسه- ص59.
7)- ميشال فوكو: مرجع سابق- ص284.
8- نفسه- ص76.
9)- عالم المعرفة: ملف اللغة والهوية- جون جوزيف- ترجمة عبد النور خرافي- العدد 342 أغسطس 2007، مطابع المجموعة العالمية، ص22.
10)- عمارة ناصر: اللغة والتأويل- دار الفارابي- الدار العربية للعلوم- منشورات الاختلاف- ط1- بيروت- لبنان- 2007- ص14.
11)- عبد الرزاق الداوي: حوار الفلسفة والعلم والأخلاق في مطلع الألفية الثالثة- ص23.
12)- وزارة التعليم العالي السورية: الاتجاهات الرئيسية للبحث في العلوم الاجتماعية والإنسانية- ترجمة جماعة من الأساتذة- المجلد 1، مطبعة جامعة دمشق- سورية- ط1- 1977- ص51.
13)- JulienFresund Plon- Editions de :par _ Essais sur la théorie de la science- Tra poche, Pocket- 1992- P : 47.
14)- لمزيد من التوسع ينظر إميل دوركايم: قواعد المنهج في علم الاجتماع- تر: محمود قاسم- مكتبة النهضة المصرية- ط1- 1974/ مجموعة من المؤلفين: التأويل والترجمة- تر، تح: إبراهيم أحمد- الدار العربية للعلوم- منشورات الاختلاف- ط1- 2009.
15)- Cl. Lévi-Strauss : La pensée sauvage, Paris, plon- 1962- P : 227.
16)- عبد الرزاق الداوي: حوار الفلسفة والعلم والأخلاق- ص1